

امسية ضائعة ..

قصة بقلم الدكتورة انعام المسلم

شلل الاطفال وانا صغيرة .. لكنت الان اما حنونا ، انعم بمحبة اطفالي وينعمون برعايتي !

كان ذلك منذ نيف واربعين عاما ، عندما قدم شاب في صدره تونب وعلى جبينه كبرياء وفي عينيه ربيع وفي عبه نبع لا ينضب من المال فلقد جاء يعمل برأسمال ضخّم اعطاه له والده .. وتمطى حولسه اخطبوط وما لبث ان وجد الشاب نفسه محاطا باذرع الخمسة حيث قاده الى امرأة تقبع خلف استار كثيفة من العبودية !..

قال الاخطبوط له : انها جميلة ، بارعة الجمال !.. وفي مخدع الزوجية ، تبدت له الحيلة التي انظلت عليه .. فقد كانت عاتلة من كل انواع الجمال .. وتزوجها كما يفعل كرام الرجال .. وبقي صامتا .. لا يحدثها عن الخدعة التي طوقه بها ولا كيف اسرفوا في وصف جمالها .. بل احتمل الامر في محاولة يائسة للعثور على جمال في غير جسدها في روحها مثلا !..

ولكنه فشل في العثور على ذلك ايضا !.. ورغم ذلك جئت انا .. نتيجة العلاقة الفاشلة !.. انا ماساة من نوع نادر !.. فامي لا ترى في الا صورة من الإشاعة تذكرها بنفسها وشكلها ليبل نهار !..

ولهذا لا يمكن ان انال اكثر من عداء وافر سافر .. وهذا كاف بدوره ليحيل العشى الذي بدا ساكنا تحت رماد العام الاول الى جحيم مستنمر !..

ولم يطل الشقاق الصامت بينهما بل تحول الى حرب داخلية قاسية .. وداهمني الشلل في وسط ذلك الانون ولما يبيض على مولدي اكثر من عام واحد .. وخلفني كما ترون شبه آدمية .. بيد ونصف يد وبعضلات وجبهة مشلولة !..

نصف اليد هذه بقية ليد اخرى غصها الشلل بناييه فاخذ من طولها وعرضها وتركها مسخا مشوهة .. ليس لها حركة اليد وهي كما ترون يدي اليمنى ، التي كان من المفروض ان امسك بها فلما اكتب به ، او كتابا اطالع ما بين اوراقه .. لو جاءت طبيعية لكان من المفروض ان اصافح بها الناس واعرب بها عن مودتي لهم ، وان اقرص بها بحنان لا ينتهي وجنات الصغار الاعزاء !..

ولكنه قدرتي الذي لم افو على دفعه !..

الاطفال من حولي يففزون ويمرحون ويتراخضون الى مدارسهم وفي عيونهم فرحة تتألق بها الدنيا كلها .. وانا جالسة لا استطيع حراكا وشفقة والدي تتكوم حولي وتزيد من عجزى .. وانا مقعدة لا استطيع ان امنع بحياتي وجسدي كما يتمتع الاطفال .. وشققته تحاول ان تمنع عني العذاب بروياهم فتدعني كسيرة حسيرة قعيدة البيت كامي ..

ولم يدعنا القدر في عالمنا الخاص بل فاجاهما ذات مساء وهما في طريقهما للمنزل بسيارة ابتلعت بعض اشلائهما وعل الصياح حولي، وانتشر الهويل وفزعنا انا .. الطفلة المشلولة .. فزعت بصمت مشلول كشللي لانه لاحق لي بالسؤال عن الحادث طالما ان الجميع يعتبرني مصدر الشؤم الذي اطاح بالعائلة . وبقيت بعض قريباتي بالمنزل لاستقبال المزين ، وانا كم مهملة لاحساب لها ، ملقاة على اريكة في غرفة داخلية لا يراني احد .. ولا يحس به احد ..

وانقضت فترة ليست بالطويلة وانتقلت بعدها الى منزل عمي .. وممرت

يوم الاربعاء يقترب ، ويقترب بسرعة كبيرة ، منذ اربعين عاما ليكون عيدا لمولدي ، عيدا لمولد الشقاء الذي اروح تحت عينه ، يوم خلفتني امي وقذفت بي الى الدنيا ، كثمرة تفاح ناصجة ، سقطت من شجرة بعد ان هزتها الريح !..

وماذا في ذلك ، ليس في الامر شيء غريب ، فكل الامهات يلسدن اطفالا ، ويكبر الاطفال وتتقاذفهم الدنيا وتشفلهم بخيرها وشرها .. ولكنني اريد ان اوضح لكم الامر !..

انا عانس في الاربعين ، وما افسى ان تظل امرأة الى مثل هذه السن دون رعاية زوج ، ومحبة اطفال !.. دون جنة صغيرة تاوى اليها . دون عمل يضني وقتها ويذيب وحشتها ويسرق بعض عواطفها .. دون صلة باناس يحونها وتحبهم وتفني ايامها في محبتهم !..

لو كان لي بعض هذا لما اصبح في الامر اي التباس ولما استقلست ظل الوحدة وعانيت مرارتها !..

ولكنه الفراغ والكآبة التي خلفتها السنون ، فخطت باناملها القاسية اشكالا منفرة في وجهي .. من منكم لم ير نساء في الاربعين ، لا بل في الستين ، ومع ذلك لم ير في وجوههن مثل هذه الخطوط . والوهاد .. وحتى لو وجدها لراى الى جانبها ظلا انسانيا يحيط بهذه القسمات فيحيل لوحة الخريف الى ربيع من نوع خاص !..

اما انا ، ووجهي ، ومرآتي ، ففي شجار دائم !.. كلما وقفت امام زجاجها المصقول احسست بها تشبح عني وتهنف بي :

- لانظيلي النظر عبر زجاجي ، اينها الانسة التي في الاربعين .. ألم تكفك الاعوام الطويلة الماضية ، ألم تقنعني بعد بانه لن ينظر اليك !.. - ولكنه آت هذه المرة ، وما ادراك يا مرآتي القاسية .. ألم تري تلك السطور التي يكتبها لي في نهاية رسائله اليهم !..

- ضعي ما شئت من مساحيق ، ان يتفك كل ما في العالم منها .. طالما ان وجهك بلا ظل انساني !..

- ولكنني لست التي حرمت نفسها هذه الظلال التي تحددتني عنها .. الا تجدني لي عذرا يا قاسية ..؟

وتفرق المرأة في صمتها واخالها وقد غرفت في ضحك هستيري وكانها تكشف عن كل قبح في جسدي وروحي .. وكانها تهيب بالحقد المرش في قلبي ان يختفي !..

ولكن عينا تضحك ، فسخرتها لانقوى على نزع الحقد بل تزيده تهاديا فيعرض ويطل من عيني ويزيد من عذابي !..

وكثيرا مانساء لم اختصتني الحياة بهذا القدر من البؤس ؟.. اولم يجد الاله من يقاسمني هذه التركة الكبيرة من المصائب فتركني وحدي احمل اعباء لا استطيع القلاع الصمود امام بعضها .. اما انا فقد استقبلتني الدنيا باكر رصيد من المحن !..

فلو كانت لي ام لا شقيت !.. ولو كان لي اب لخفف من تعاسي !.. لو كانت لي مسحة من جمال ما عدمت رجلا اتزوجه !..

لو .. ولو .. والف لو اخرى .. ولكنها كلها امان ضائعة .. لا فائدة لها !

لو تحققت لي احدى هذه الامنيات التي قد تبدو نافهة لما راينموني الان وفي اعماقي بحر من الدنس !.. لو كانت يدي اليمنى فقط اكثر طولاً مما هي عليه .. لو كانت عضلاتها طبيعية غير ضامرة لو لم يستقبلني

مراهق لا يستحق ذرة من الحب الذي اطوي عليه ضلوعي .. لولا انسه
انهى دراسته وذهب ليدرس الاختصاص في بلد لم اسمع باسمه من
قبل . ومن اين لي ان اسمع ؟.

ومن البلد البعيد اصبح يكتب لهم باستمرار ، وفي كل رسالة يسأل
لي بضع عبارات قد تمتد الى سطرين .. تأتي هي لتقرأها لي . وابكي
.. لا بل تبكي الكم المجهولة التي لا يعرف احد عن عواطفها شيئا !..

واخذت صورته تتضخم في مخيلتي ، وحببي له يزداد اشتعالا !..
وجرمانى يزيد في لهفة الى لقائه .. الى ان اقبل يوم الاربعاء هذا ..
عيد النخس الاربعين الذي لم يفارقتي لحظة .. وكان موعد عودته !..

احسست اني سافقه الى الابد .. فلا بد ان يزف الى ابنة عمي !.
ودخل غرفتي ليحييني ، بعد ان حياهم جميعا !.. وتحركت نفسي
الموتورة ، وتجمع الحقد والحسد والبغض ، واخذ الشر يغلي في اعماقي

هاتفا بي : هذه فرصتك ، الذهبية ، قول لي له اي شيء ..
اخطلقت قصصا مثيرة كي ابعده عنها .. وصببتها في اذنه على انها
حقيقة واقعة !.. والحقد يغلي في اعماقي عليهما وعلى الشباب والجمال
والحب !..

وصدقتني .. صدقتني الاحمق !..

وقبل راسي ، وشكرني لانني فتحت عينيه في الوقت المناسب وقام
ليبصق في وجهها وينهب الى غير رجعة !..

توسلت اليه ان ياخذني معه !..

ولكنه رفض ، وتمنى لي سعادة اعمق من تلك التي حرم منها ...
وسعادة لو يدري من حرمه منها !..

وخرج والدم يغلي في عيونه ..

ولو لم اسمع بمصرعه بعد خروجه بقليل لما اتيت اليكم ، لاقول
لكم انني القاتلة ... اجل انني القاتلة .. ومن اجل امنية ضائعة ..
امنية حمقاء عنت على خاطري في يوم مضى ..

دردا - الاقليم الشمالي

الدكتورة انعام المسالمة

قريبا :

قضايا الشعر المعاصر

بقلم

نازك الملائكة

سلسلة دراسات عن الشعر العربي الحديث ومشكلاته

دار الاداب

بضعة اعوام قبل ان يزف عمي الي زوجة جميلة شابة !..

ولا انسى انه قادمي هو وزوجته الى اكثر من طيبب وفي اكثر من
بلد حتى اتفق كل ماخلفه لي والدي في محاولة علاجي .. وبدات بعض
بشائر الحياة تزورني ببطء شديد ، فبعض عظامي اخذت بالنمو وكذلك
بعض عضلاتي ماعدا عضلات اليد اليمنى اخذت بالتقلص وكانها انتفت
من مسابرة بقية اعضاء جسدي !.. اما وجهي القبيح فاخذ ينمو مع
جسدي بل ويبدى في النمو ، وكذلك انفي المفلطح يتربع بكل قحة وصفافة
في منتصف وجهي ، وعيناي تغوران بذل مربع وحقد شرير !..

الخطوط تحفر في زوايا وجهي ابارا من القباحة وكان كل مايقسي
من بشرة وجهي هو بقايا خربة من بشور جذري اكل .. ومع ذلك فرعاية
عمي وزوجه لانهما بكل هذه المعاني .. فحبهما اللطخ بالشفقة يملا
علي البيت ، الى ان جاء يوم احسست فيه ببطء في تنفلات زوج عمي
واصبحت تختص بمعظم اوقات عمي ورعايته واصبحت انا منسية من
الجميع حتى الخادمة بدات تتجاهلني ، ولا تلبني لي طليا قبل ان يرتفع
صوتي بالزريع وكانني جرو اجرب في ليلة مطرة !..

وبقيت هكذا حتى ولدت زوجة عمي .. رزقت طفلة جميلة كامها !..
واصبح في البيت من يحتل عرشا قوامه الحب ، الحب البرا من الشفقة
ومن الشعور بعبء الواجب ، وانا يومها في الخامسة عشرة من عمري

اي في مطلع الربيع لو قدر للربيع يوما ان يسكن جسدي او روحي !..
احضروا لي معلمة لتدرسنني مبادئ القراءة ولم اطق يومها التطلع
الى فم المعلمة الجميل ، فقد كنت افارن بين فمها وفمي دائما !.. وبين
يدها ويدي !..

وانتابهم الياس .. وتهامسوا فيما بينهم ، فصور في تكوين عقلها ..
مسيكة !..

وانتجبت امرأة عمي ، بكت من اجلي امرأة ليست امي ، امرأة جميلة
لانحس بالحرمان !.. اما انا المحرومة من الجمال فاني اكرهها ، اكره
الجمال كله ، والجماليات كلهن !..

كانت دموعها ابرا حادة تزقني ، وشفقتها سيطا من نار مسلطة
علي !.. والايام تطوى وانا ارقب الصغيرة التي تنمو .. والاطفال الاخرين
الذين اخذوا يتوافدون الى البيت !.. وازداد عدد الاطفال واصبحت
مرة اخرى « كما » اكثر اهمالا من ذي قبل .. تضاءلت امام الصغيرة
النائمة ، الصغيرة التي يركع الشباب والجمال امامها برضى عميق !..
وانا احس باشياء مهمة تفرز انيابها الحادة لتمزق صدر الانثى ..
الانثى المحرومة من كل معاني الانوثة ومعالها ! صدري انا .. صاحبة
الامنيات النافهة !.. وفي غمرة التمزق الذي اعيشه جاء ابن عم لي
ولها من بلد اخر ، حيث يعيش ابواه ، جاء الي هنا ليقيم معنا ريثما
ينهي دراسته ...

كان في الثامنة عشرة من عمره ، وابنة عمي في الخامسة عشرة ، وانا
في الثلاثين !..

ولا ادري كيف تنفتح عواطف الحب لدى الحرياء القذرة ولكنني افسم
انها تفتحت في صدري ، فاحببته !..

احببته بكل لهفة الانثى المحرومة ، الانثى المشنقة لن يفجر عواطفها!
ولكن اية انثى كنت ؟..

ويحي !.. فانا انثى لايتناها رجل مهما بلغ حرمانه !..
حاولت جاهدة مرة ان اجد شيئا اشبهه ، ولكنني لم اجد شيئا ...

حتى الزواحف وجدت لها بعض الميزات التي لم اكن املك مثلها او
مايقارنها !..

اما هو .. القادم .. فقد احب .. احب صاحبة الخمسة عشر
ربيعا بشفق زائد .. وكثيرا ماكان يجلس في غرفتي ليدبج لها الرسائل.
واجلس انا لاسترق النظر اليه !.. واعاني كثيرا من فيضان الفيرة والحسد
والحقد وهي تتجاذني ، ولا املك الا ان اضفط بقسوة على اسنانني
حتى يرتفع الصرير الذي لا املك غيره وسيلة للتنفيس عما يضطرم
في الاون الداخلي !..

وكدت ان اصرف النظر واستسلم للامر .. كدت ان اقنع نفسي بانـه